

المران . إذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم في كل عصر ومكان .  
وقد وقع تدوين هذا الكتاب في أول شهور السنة السادسة والثمانين  
بعد المائة من هجرة نبينا المكرم ( صلى الله عليه وسلم ) والله نَسألُ أن  
يُجَمِّلَ حالنا بالسَّيرِ الجميل ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، لا ربَّ سواه .

## الرسالة الثامنة

### رسالتى إلى قيصر الروم

هذا تاسع كتبي إليك أفردته لذكر الرسالة إلى أنبرذور الفرنجية ، وأنا  
أكتبه اليوم على متن السفينة في البحر الفاصل بين الروم وإفريقية . كان  
الرشيد يوم وصل رسول الأنبرذور إلى الحضرة<sup>(١)</sup> قد استدعاني إليه فأصنفته  
في مجلسه متنقلاً كأنه يريد أمراً عظيماً ، فاستدنانى<sup>(٢)</sup> إليه وقال إننا أتانا  
من ملك الفرنجية رسولٌ يُقرئنا منه السلامَ ويلتمس جميل رعايتنا بمن  
يُحجُّ إلى بيت المقدس من ملته ، فرأينا أن نوجهك إليه بلطائف زروم منه  
أن يتقبلها في سبيل المودة لغاية نرغب فيها إليه هي التمسُّب على بنى أمية  
الذين يمزقون الأندلس فيما هو ناشب بينهم من الحروب ،<sup>(٣)</sup> فإذا وافقنا على

(١) هذه اللفظة لقب زومى للقيصرة وقد وردت في كتب العرب ووجدت

في ابن خلكان ١ : ٨٤ لفظه انبرور بحذف الذال وهي تشبه أن تكون منقولة عن

الفرنساوية (٢) في الأغاني ٤ : ٤٨ أن الخليفة يستدنى من يحبه (٣) راجع

المقرئ وابن الاثير تجد كلاماً مطولاً في هذه الحروب

ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنفاذك إليه في هذه الرسالة ، واجهد في أن تسترق قلبه بخلاصة لسانك ، وتقدم إليه بالوعد الجميل في أننا نوفيّه حقّه يوم الفتح ، ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ، ونجري الأرزاق الواسعة على جنده وتقاسمه ما تحوى خزائن الظالمين من المال والجوهر ، واستصحب معك هذا اليهودي الذي جاء به رسوله فهو يترجم عنك إليه ، وخذه بالتعظيم الكثير لأنه شيخ مُرَفَّ جليلُ القدر فيما نقل الرسول إلينا ، وقد قدّمنا إلى مسرور أن يُصحبك بالخدم مع الدواب والخيام إلى بيروت من ساحل الشام ، فاذا عدت إلينا وأنت آخذ على مصر أمرنا الليث أن يوجه معك طائفة من الحرس إلى عيذاب فتوافينا إلى البلد الحرام حيث توافقنا حاجين ، فسر على بركة الله ، وإياه نسأل أن يتولاك بعين الحراسة ، ويهدي قلبك الصواب وهو ولي التوفيق .

فلما أذن لي بالانصراف أتيت البرامكة لأستطلعهم رأيهم في المصلحة فلقيت جعفرًا منزهاً في البستان وبين يديه جماعة من الندماء . فلما أقبلت عليه قال اخرج عما بنفسك وحدثنا عن سفر البحر ، فقلت وأنى ذلك ؟ فقال علم الله أنى أنا الذي أشار على الرشيد بأن يوجهك إلى ملك الفرنجة رسول خير ومودة وسلام . ثم أوماً إلى الجلّاس فتحنّوا عن موضعنا فاستدنانى إليه وقال بيم أوصالك ؟ فقلت بكذاركذا من الأمر ، فوجم ساعة ثم قال سبحان الله إلام يتمادى به تقرير القتال ؟ لقد أشرت عليه بأن يعدل عن مناجزة الأمويين ، لأن لنا في الشرق ما يشغلنا عن قتالهم ، وفي الخوارج الذين يقارعونه على الخلافة في كل حين ما ان ضعفنا عنهم مرة

واحدة فسدت دولته فساداً لا تقوم لها من بعده قائمة . وان يكن الرشيد عن موعظتي غنياً بما عنده من العقل والعلم فإن الملوك قد تطمح نفوسهم إلى ما وراء الشر من طمع الاستيلاء ، وقد قال الله تعالى « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » ،<sup>(١)</sup> فإنا وللأمويين وقد كفانا الله شرهم ، فإن كانوا في شقاق فلندعهم ينادون بالويل والحرب إلى ما وراء البحور ، وليس لنا أن نلقتي برجالنا في المواضع المحجفة ونوردهم موارد الهلاك ، فإني أرى الجند يتفانون قبل الاشراف على تلك المتالف ، كما اني أحسب الأبرذور على ما يؤثر عنه من إثارة الرفق ولزوم التؤدة بعيداً عن موافقته على ما يروم من الايقاع بملوك أمية ، وهم مطمئنون في ديارهم معتصمون في قلاعهم وقد عمروا أمصارهم ودوتوا دواوينهم وشكوا في حصونهم واتخذوا الأهبة لهم والمدة والكراع ، ودون الاستيلاء على ديارهم شيب الغراب ،<sup>(٢)</sup> ولقد كان أولى بالرشيد أن يرى دول الأندلس درعاً منيعاً للإسلام وسيوفاً مشهورة على الروم ، لأنها لو دخلت في حوزته لم يأمن إن أرسل الجند أن يخونه القواد أو مات الأبرذور عن خلف لا يرعى المهود أن يوجه من يقبض على عمالها من لدنه ، وقد بدا لي أن أعاوده في هذا الشأن فان رغبت عما فرط منه وإلا فليفعل ما كان فاعلاً لبلوغ أمنيته .

(١) سورة المائدة (٢) نقلت الأخبار السالفة عن ملوك أمية أنهم لما هربوا من دمشق إلى الأندلس ووجدوا اليمانية فيها غير مدعنة لدولتهم قاتلهم قتالا أحبوا معه الموت أو يحصلوا على لقمة تبق الرمق وبلغ استقتالهم في سبيل الملك إلى أن يقتل أحد ملوكهم ابنه من أجل أنه تراجع عن العدو وقد هاله كثرة جمعهم فقال لأحد أصحابه بعد أن ضرب عنقه اكسروا جفون السيوف فالموت أولى أو الظفر

« ابن الأثير ٦ : ٤ »

فلما كان الغدُ بكرَّ جعفر إلى الرشيد وخلا به ساعة جيدة يقلب عليه الكلام وَيَحْضُهُ الرَّأْيَ والنصيحة ولكن من غير أن يقوم ما بنفسه من الميل ويعدل به عن ركوب هذا المركب الوعر. فاستدعاني إليه وسلمني كتابه إلى الأنبرذور وأمرني بأن أجنس أخبار العمال وأتفقد أمورهم حيث مررت. وأوصاني برجل من الأمويين في دمشق كثير المال كبير الجاه أن أتحقق حاله حتى إذا كان يُخشى منه استمالة أهل الشام إلى الفتنة رفعتُ ذلك إليه ليتدبر أمره،<sup>(١)</sup> ثم قال وإذا مثلت بين يديه « يريد قيصر الروم » فقل له عن أمية إنهم قومٌ قد كفروا بالنعمة وتركوا فروض العباداة وسعوا في الأرض فساداً وأنا أحق بالملك منهم لمكاننا من قرابة النبي صلى الله عليه وسلم. ثم أذن لي بالانصراف، وكان يظهر من الميل إلى جميل المطف على بحيث كان يدعوني بلفظة الحبيب<sup>(٢)</sup> كلما بدأ بالكلام بعد انقطاعه.

وكان في لطائف الخليفة إلى الأنبرذور فيلٌ عظيمٌ أيضاً كان عند المهديّ (رحمه الله) أرسله له بعضُ ملوك الهند،<sup>(٣)</sup> وثياب فاخرة من الوشي المنسوج بالذهب، وبُسُط ديباج من طبرستان، وأعطار من اليمن

(١) ذكر الاتليدي ١٢١ والابشيبي ١ : ٨٤ قصة ظريفة عن هذا الأموي فليراجعها هناك من أحب (٢) ذكر الأغاني ٦ : ٥٧ أن الخليفة لا يترفع عن أن يدعو بعض خواصه ياحبيبي ونقل صاحب العقد من نوادر اسحق انه لما دخل على المأمون استداناه اليه فدنا منه قال اسحق فرفع المأمون يديه فاتكأت عليه فاحتضنتي يديه وأظهر من اكرامى وبرى مالو أظهره صديق لي مواس لسرنى ٣ : ٢٤٠  
(٣) ذكره الأغاني ٩ : ١٣٦

والحجاز، ومسك وصندل وأعواد نَدَّ من الهند، وسُرَاقٍ عظيم مجالل بأنواع الحرير وكلاليه من الذهب الملبس بالوشى، ومِزْوَلَةٌ كبيرة تدل على الأوقات في ليل ونهار، وهى من عمل صنَّاع بغداد، وشِطْرَاجٍ بديع الحسن قد اتخذت أدواته من العاج المنقوش، صنَّعه تقاش من النصارى اسمه يوسف الباهلى ورسم اسمه على الأداة التى تُهْتَلُ الشاه، وهى من الحسن بحيث إن الناظر إليها يُكْبِرُ صناعتها وقد مثل فيلًا يُلْفُ خُرْطومه على فارس وعلى رأسه جنديّ قد أخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فرُسان يراد بهم الرمز إلى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه وعلى ظهره هودج مزخرف بأنواع الرسوم قد استوى فيه ملك على رأسه تاج مثل تيجان ملوك حَمِير<sup>(١)</sup>، وقد أظهر هذا الرسام فى تصويره من الحِذْق ما يستحق عليه الثناء، لأنه مثل أصحاب الفيلة كما هم، وجمل فى آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أساور وعلى أبدانهم القراطق وهى لباس الهنود، واتخذ عددًا خليل مزخرفة وصنع لها السروج والأزمة، وقلد الفرسان شيئًا من السلاح ما عدا الجنديّ الذى أخذه الفيل بخُرْطومه فانه يُعالج بنفسه للخلاص مما هو فيه، وقد طُرِحَ سلاحه على الأرض وعليه سِمَةٌ التوجع والانكماش<sup>(٢)</sup> مما يشهد للممثل بأنه من مهرة الصنّاع.

### المروور بالكوفة وبلاد الشام

لقد رُسم لى طريق الوجهة بأن أسير إلى الكوفة ثم إلى دِمَشق ثم إلى يَبْرُوت على ساحل البحر، وكان مسيرنا فى غاية البطء رفقًا بالفيل

(١) ذكر تيجان ملوك حَمِير صاحب مروج الذهب ٢: ٢١٥ (٢) هذه الأداة لم تزل الى هذا اليوم محفوظة عند الفرنجة وقد رأيت صورتها فوصفتها كذلك

والدواب المثقلة بالأحمال، فاجتزنا بعد الانفصال عن الحضرة بمدينة النيل التي مصَّرها الحجاج،<sup>(١)</sup> وهي بمنتصف ما بين بندا والكوكة،<sup>(٢)</sup> ثم عطفنا إلى الأنبار،<sup>(٣)</sup> ثم إلى مدينة الكوفة فنزلت بها في رجة خنيس الأنصاري من أجداد أستاذي أبي يوسف رحمه الله<sup>(٤)</sup>، وهي في مقابلة الباب الكبير المعروف بباب الفيل،<sup>(٥)</sup> وقد طاب لي المقام بين أهلها لما وجدت فيهم من الحب لأهل البيت<sup>(٦)</sup> (شرفهم الله) ولا سيما في قوم كندة من ملوك النصرانية، وهم من غلاة الشيعة<sup>(٧)</sup> وأكثرهم عالمٌ وحكيم وأديب، كان يتهم معدن العلم ومظهر الحكمة، وقد لقيت منهم إسحق الكندي وهو عامل الرشيد على الكوفة، قلده الامارة بإيماز البرامكة الذين يحافظون على تأييد الشيعة،<sup>(٨)</sup> ويبغون من إلف الرعية فيما ينهم تعظيم الاسلام في انتفاعه بحكمة الأمم وعلومهم وصناعاتهم، وقد جروا في ذلك على سنة أبيهم خالد (رحمه الله) وهو الذي قرَّب بعض النصارى إلى أبي جعفر كما تقدم في موضعه من الكتاب.

ولقد وجدت الكوفة من أعظم مدن العراق،<sup>(٩)</sup> وهي ذات ماء وشجر ونخيل،<sup>(١٠)</sup> وقد رت أن تكون في الكبر كنصف بندا، فحق تسميتها بالكوفة لاجتماع الناس فيها، من قولهم تكوف الرمل إذا ركب

(١) القناوى ١٣٥ (٢) ياقوت ٢٤: ٨٨٣ (٣) المسعودى ٢: ١٤

(٤) ياقوت ٢: ٧٦٢ (٥) الأغاني ٥: ١٦٦ (٦) هذا معروف في كتب

المؤرخين وذكر أبو الفداء ٢: ١٤ أن كبير علماء الكوفة كان يميل مع الإمام على كرم

الله وجهه (٧) الوطواط ١٢٥ (٨) المحاضرة ٢: ٨ (٩) ابن جبير ٢١٣

(١٠) القناوى ١٣٦

بعضه بعضاً،<sup>(١)</sup> وقد زارني فيها كثير من أدبائها المشهود لهم بالفضل والاجتهاد، ولكنني لم يتهياً لي زيارتهم لقصر الوقت، ولقد وجدت إسحق أميرم من العلم والعقل بالموضع الذي أكتفي من الدلالة عليه بأن آسف لبُعده عن الاسلام. وهو يسكن داراً مباركة تمزى إلى عقيل بن أبي طالب،<sup>(٢)</sup> وهي بازاء المسجد المبارك الذي قال فيه بعض الصالحين إن ركعتين فيه تعدلان عشرأ فيما سواه من المساجد، وإن البركة منه إلى اثني عشر ميلاً من حيث أبتته،<sup>(٣)</sup> وقد زرته قبيل الانفصال عن المدينة ولم أر في عمدة المساجد كلها ما هو أطول من عمده<sup>(٤)</sup> ثم زرت مشهد علي عليه السلام<sup>(٥)</sup> وتبركت به وقرأت عنده شيئاً من القرآن.

ولما انفصلت عن الكوفة تخلفت عنى الدواب المحملة، فانقطعت في الفلاة مع جماعة من الحرس، ورحنا تقطع القفر بعد القفر، حتى إذا عظمت على مشقة السفر تذكرت طيب بغداد وظرائفها<sup>(٦)</sup> وحننت إلى مجالس البرامكة والدار عندم جامعة، وأوقات الأُنس بهارئة، فكنت أقول متمثلاً بكلام إسحق النديم<sup>(٧)</sup>.

(١) تقويم البلدان ٣٠١ (٢) الأغاني ٤: ١٨٢ (٣) ياقوت ٤: ٣٢٥ (٤) ابن جبير ٣١٣ (٥) تقويم البلدان ٣٠١ (٦) القزويني والأغاني ٥: ٩٤ و ١٧: ٧ وفي غير موضع (٧) الأغاني ١٧: ٧٥ و ذكر ياقوت في صحيفة ٦٨٨ من المجلد الأول أن الرشيد أنشد البيت فرمما لم يكن لشعر له بل كان من نظم اسحق لأنه كثير ما كان يذكر بغداد ويتشوق إليها وهو في أسفاره مع الرشيد ويقول

ذكر الأجابة فاستحنّ وهاجه للشوق نوح حمامة وحام  
لم يبد في الصدر الا أنه حيا العراق وأهله بسلام

على أهل بغداد السلام فأنى أزيد بسيرى عن ديارهم بمدا  
إذا ذكرت بغداد نفسى تقطمت من الشوق أو كادت تذوب بها وجدا  
ولم أزل مجدداً في السير حتى بلغت دمشق في اثنتى عشرة ليلة،<sup>(١)</sup>  
ولو أنى سرت تحت جناح الليل لبلغتها في ثمانية أيام<sup>(٢)</sup> فادونها، فنزلت  
فيها عند قاضيها الامام عمر بن أبى بكر بن تميم القرشى المدوى<sup>(٣)</sup> فى دار  
بناها عويمر أبو الدرداء، وهو أول من ولي القضاء بدمشق، وكان القضاء  
قبله يسكنون قصر الحجاج<sup>(٤)</sup> المعروف بالقصر الكبير.

أما الشام فانها بلاد مباركة كثيرة الخيرات، وفيرة الغلات، إلا أنها  
نكيدة الحظ فى تغلب الأمم الغازية عليها، ولذلك قلت عمارتها إلى هذه  
الغاية بعد تغلب الكلدان عليها والفرس الأولى والفراعنة واليونان والروم  
والفرس الثانية ولا سيما قبيل أن ظهر الاسلام، وقد كانت تمزقها الحروب  
التي تسعرت نيرانها بين بنى عامر المتغرضين للفرس وآل غسان المتغرضين  
للروم، فانتقض عمرانها ودرست سبلها وتداعت أحوالها إلى الانحلال  
بعد أن كانت فى عظمة لم يكن مثلها فى الدول إلا قليلا، وكانت فيها  
التجارة كأعظم ما يكون من النفاق وللعلوم والصنائع سوق رابحة  
رابحة فدرست تلك المحاسن وتقلصت تلك الرسوم حتى لم يبق اليوم من  
مصانعها غير رسوم شاخصة وآثار ناقصة.

وانما دعا أهلها إلى الفساد وجلب عليهم المذلة وطمح بأبصار الملوك  
إلى التهامهم ما وقع بينهم من الشقاق وما كان فى نفوسهم من التحزب

(١) الأغانى ٥: ١٦٦ (٢) الاتلیدی ٢٦٣ (٣) قضاء الشام

(٤) الاتلیدی والمستطرف ١: ٢٨٧

الذي هو أشد من الفتنة،<sup>(١)</sup> فكان ظهور المرسلين فيهم سبباً لتعصب بعضهم على بعض وإن كانت مواضعهم داعية إلى المحبة والاتحاد. وهذا هو الأمر الغريب الذي لم يُسَمَّع بمثله في البُلدان، فلقد كانت الشام مهبط الوحي ومسقط النبين وموطن الأولياء الطاهرين الذين كانوا يتخذون الانصار لنفوسهم ويرومون إدخال الناس في شيعتهم ليجمعوا ما كان شتيتاً من شملهم ومتفرقاً من كلمتهم وأغراضهم، إلا أنهم لم يبلغوا من ذلك الغاية التي كانوا يرومونها من أمرهم. فانما الواجب على أهل الوطن الواحد أن تكون فيهم جامعة الألفة وألا يتمصبوا بميولهم إلى غير ما يقصدون منه الوحدة فان عظمة الامم لا تحصل، إلا بالاجتماع والمُصنبة، سنة الله في خلقه. أنظر إلى الدول الرومية كيف عبث بها العدو حين وقع فيها الانقسام والتجزؤ. وانظر إلى الدولة الأموية لم يقارعها أبو مسلم على الخلافة إلا عند ما تخالف عليها صبيبتهم<sup>(٢)</sup> فيما يرمون إليه من طمع النعيم، وانظر إلى أهل البيت السلالة الشريفة والذرية الصالحة كيف وقعت بهم الشدة يوم تفرقوا على أغراض لا تجمع بينهم إلى الوحدة، فلما اجتمعوا في المغرب إلى إدريس بن ادريس (رضى الله عنه) قام لهم ملك يرجف له الشرق،

(١) هكذا كانت الشام في زمن الجاهلية والاسلام فان مصعب بن الزبير لما خطب الناس قال بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين تلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين أشار يده نحو الشام وهو يريد ان به الى يومه مثل ذلك (٢) ذكر صاحب المقعد الفريد انه قيل لبعض بني أمية ما كان سبب زوال ملككم قال اختلاف بيننا واجتماع المختلفين علينا.

فان تنظر الى ذلك كله وإلى كثير مما وقع وما هو واقع في الممالك تجد أن الأمم لا تقوم دولهم إلا برابطة الاجتماع والمصيبة، ومتى تسقط من روابطهم تلك الأوصال يُنذر أمرهم بالانحلال وتتداع أحوالهم إلى الاضمحلال .

## وصف دمشق وأنها بهجة البلدان

ولما وفدت على دمشق وسرحت الطرف ناحية القوطة امتلأت عيني من خضرة الأرض حتى تخيلت نفسي في جنة من جنات السماء ، ولا غرو فان مياهها وأشجارها وورياحها أفضل ما في الدنيا من المتزهات ،<sup>(١)</sup> يسير الرجل في رياضها يومه لا تصيبه أشعة الشمس لالتفاف شجرها بعضه على بعض ، وهي في أسمى مقام بين مدن الاسلام : بعد دار السلام .  
قد اشتبكت فيها العمارة<sup>(٢)</sup> وتزهت عن المثل في النضارة . لكنها ليست بالمفرطة في الكبر ، وربما كانت إلى الطول أميل منها إلى العرض ،<sup>(٣)</sup> وهي لا تخلو من السقايات<sup>(٤)</sup> في أسواقها ولا بيوتها ، ومبانيها طبقات فوق طبقات<sup>(٥)</sup> وتحتوي من الخلق على العدد الكثير ، والناس على مذاهب فيمن بناها من الأولين . فمنهم من يقول إن عاداً أول من نزلها من الناس وإنها هي إرم ذات العماد ،<sup>(٦)</sup> ومنهم من يذهب إلى أن بانيها الغادر غلام

(١) تقويم البلدان ٣٥٣ وابن خرداذبة ١٢٤ وياقوت ٢ : ٥٨٩ (٢) القزويني

٢٦ (٤) ابن جبير ٢٨٥ (٤) المقرئ ٣٠ وابن جبير وابن بطوطة

وياقوت ٢ : ٥٩٠ (٥) ابن جبير ٢٨٥ (٦) ابن خرداذبة ٧١ القرمانى

١١٨ : ٥ والشريشى ٢٠٧ : ١

نرود<sup>(١)</sup> أو دمشاقُ بن كنعان ، ومنهم من يزعمُ أن الذي اختطها هو دمشقس مولى الاسكندر الرومى ،<sup>(٢)</sup> ومنهم من يرى غير ذلك . إلا أنه ليس فيما يقولون حجةٌ ترجع بهم إلى محاسن التحقيق في وثائق الآثار ولا سيما عند الذين يعزّون بناءها إلى الروم ، فإن الرد عليهم واضح لا يحتمل التأويلَ بعد أن أتى موسى كليمُ الله على ذكر دِمَشق في غير ما آية من كتاب التوراة . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين في ذلك فإنّ هي إلا مدينة أولية<sup>(٣)</sup> قد صحبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل جفنة وبنى أمية دهرًا طويلا ونالت من العزة والمهارة ما قلَّ أن يتاله غيرها من المدن ، ولو كان البناء الذي شاده فيها الملوك من الحجر الصلّد ثم بقى ماثلا إلى هذه الأيام لكانت دِمَشقُ زينة الدنيا ، ولكنه شيّد من طين ولبن فأتى عليه الانحلال ومحت الأيام آثاره<sup>(٤)</sup> فلم يبق منه إلا قلعةٌ من الحجر تُعزى إلى الروم<sup>(٥)</sup> وقصره يُقال له قصرُ جَيرون عليه أبواب عجيبية من النحاس<sup>(٦)</sup> وبنائه يقال له البريص فيه كثير من العُمد ، وترعم العامة أنه كان يجري منه الشراب في قديم الزمان إلا أن أركانه اليوم قيامٌ وقعود . وحيطانه رُكعٌ وسجود ،<sup>(٧)</sup> وقصران من الحجر لعمربن عبد العزيز<sup>(٨)</sup> وللوليدبن عبد الملك<sup>(٩)</sup> وهما جميع ما تخلف عن ملوك بني أمية ، لأن ما نجا من معول الزمان لم ينجُ من معول أبي جعفر ،<sup>(١٠)</sup> كما مرّ في موضعه من الكتاب .

(١) الكنز ٢٣ (٢) القرمانى ٥ : ١٩٣ (٣) تقويم البلدان ٢٥٣

(٤) قلائد العقيان ٥ (٥) ابن جبير ٢٩٠ وتقويم البلدان ٢٥٣

(٦) المسعودى ١ : ٢٤٢ (٧) المسعودى ١ : ٢٩٧ (٨) ابن جبير ٢٩٣

(٩) المقدمة ١٥٤ (١٠) ابن الاثير والمسعودى ٢ : ١٤٣ والحيس ٢ : ٣١٤

ولقد وجدت أهل دِمَشْقَ أَحْسَنَ النَّاسِ خَلْقًا وَخَلُقًا، يَكْرُمُونَ  
 الْفُقَرَاءَ وَيَتَلَمَّسُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا صَدَقَتَهُمْ حَتَّى يَكُونُوا هُمْ فِي صُورَةِ  
 السَّائِلِ، <sup>(١)</sup> وَلَوْ أَنَّ فَقِيرًا أَعْرَضَ عَنْ كِسْرَتِهِمْ لَقَالُوا وَيَحْنَا لَوْ عَلِمْنَا خَيْرًا  
 لَتَنَاوَلْنَا مِنْ طَامَانِنَا، <sup>(٢)</sup> وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ فَضْلَانِهِمْ أَنَّهُمْ يَزْهَدُونَ فِي الدُّنْيَا  
 وَيَنْقَطِعُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مُتَبَتِّلِينَ فِي جَبَلِ لُبْنَانَ، <sup>(٣)</sup> غَيْرَ أَنِّي لَا أُطَلِّقُ هَذِهِ  
 الرِّوَايَةَ إِلَّا عَلَى فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ مِنَ الصَّالِحِينَ، لِأَنَّ جَهْورَهُمْ مَائِلٌ إِلَى اللَّهْوِ وَالطَّرْبِ  
 وَلَا سِيَّامًا فِي يَوْمِ السَّبْتِ، فَانَّهُمْ لَا يَشْتَمِلُونَ فِيهِ إِلَّا بِالْمَجُونِ وَالتَّهْتِكِ، لَا يَبْقَى  
 فِيهِ لِلسَّيِّدِ حَجْرٌ عَلَى الْمُلُوكِ، وَلَا لِلوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ، وَلَا لِلرَّجُلِ عَلَى الْمَرْأَةِ، <sup>(٤)</sup>  
 وَهَذَا أَمْرٌ غَرِيبٌ لَمْ أَرَهُ فِي غَيْرِ دِمَشْقَ وَلَا أَعْلَمُ هَلِ النَّصَارَى يَشَارِكُونَهُمْ  
 فِي ذَلِكَ، لِأَنِّي رَأَيْتُهُمْ مُنْقَطِعِينَ عَنِ مَخَالِطَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَنَازِلِ وَالْأَحْيَاءِ،  
 قَدْ تَأَلَّبُوا عَلَى كَنِيسَةِ مَعْظَمَةٍ عِنْدَهُمْ تَعْرِفُ بِكَنِيسَةِ مَرْيَمَ، <sup>(٥)</sup> وَيُقَالُ إِنَّهَا  
 مِنْ أَعْظَمِ بَيْعِهِمْ بَعْدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وَبَقِيتُ فِي دِمَشْقَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ إِلَى أَنْ وَفَدَ الْعِلْمَانُ بِالذُّوَابِ الْحَمَلَةَ وَكُنْتُ  
 قَدْ اسْتَقْصَيْتُ الْبَحْثَ عَنِ هَذَا الْأُمُورِ الَّذِي أَتَعَبْتُ خَاطِرَ الرَّشِيدِ أَمْرُهُ فَلَمْ  
 أَجِدْ لَهُ غَرَضًا فِي السِّيَاسَةِ وَلَا هُوَ طَامِحٌ إِلَى مَلِكٍ وَلَا إِمَارَةٍ وَلَا يَجِدُّثُ  
 نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا يُقْلِقُ بِالرَّشِيدِ حَتَّى يُخَافَهُ عَلَى أَمْرِهِ، فَامْسَكَتُ عَنِ  
 السَّعْيَةِ بِهِ لِأَنِّي رَأَيْتُهُ وَهُوَ خَلُوٌّ مِنْ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ مِثْلَ التَّاجِرِ الْكَثِيرِ الْمَالِ  
 وَالجَاهِ لَيْسَ إِلَّا، وَقَدْ تَهَيَّأْتُ لِي بِاسْتِطْلَاعِ خَبْرِهِ أَنْ أَقْفَ عَلَى سَيْرِ غَيْرِهِ مِنْ  
 أَقَارِبِ الْخُلَفَاءِ مُتَابِعَةً لِمَا نُقِلَ إِلَيَّ مِنْ خَبْرِهِ فَوَجَدْتُ فِي الْأَوَّلِينَ عَقْلًا وَسِيَّاسَةً

(١) الابشيبي ١: ١٢ (٢) ابن جبير ٣٨٨ (٣) ابن جبير ٣٨٩

(٤) القزويني ١٢٨ وابن بطوطة ٢: ١٩٧ (٥) ابن جبير ٣٨٥

إلا أنه لما صار الأمر إلى صبيبتهم المسترفين استرسلوا في القصف والتهتك،<sup>(١)</sup> وعكفوا على اللذات واستخفوا بأمر الرعية، وغفلوا عن مصالح الملك فأزاله الله تعالى عنهم وألبسهم ثياب الذل بذنوبهم.

وقد انتهى ترف ملوكهم إلى الوليد بن يزيد<sup>(٢)</sup> وهو الذي أخذت الخلافة في الانحلال بين يديه، وتحرك الدعوة عليه في خراسان بما وجدوا فيه من قلة الخيرة بأموار الملك وعكوفه على اللهو والطرب<sup>(٣)</sup> وقيام خلافته بين الكأس والوتر،<sup>(٤)</sup> وقد استرسل في التبذير حتى أفق ما جمعه أجداده في بيت المال، لأنه أفرط في السكرم افراطا فاحشا حتى إنه لم يقل «لا» في سؤال سئله،<sup>(٥)</sup> وكان إذا وصل الشعراء عد أياتهم وأعطاهم عن كل بيت ألف درهم،<sup>(٦)</sup> وكان يتأنق في صنوف الملاذ من المطعم والمشرب والملبس فيقال انه لبس القلنسوة من الوشي<sup>(٧)</sup> مذهبة، واتخذ العقود من الجوهر كالنساء يغيرها في اليوم مرارا<sup>(٨)</sup> لشغفه بها، وكان يتختم بالياقوت، ووقع من خواتيمه إلى بني العباس<sup>(٩)</sup> خاتم يساوي أربعين ألف دينار، ويقال في حسنه إنه كان إذا أخرج من تحبسه أضاء المكان من شدة لمعانه. وكان يسترسل في الطرب إلى أن يوجه رسله<sup>(١٠)</sup> في طلب المغنين من الحجاز وغيره، فتجد أنه لم يثقل أمره على الرعية من وجه واحد، وإنما هناك وجوه قد ساقط عليه الفتنة فقام الناس عليه وقتلوه شرقتلة. هذه نتف من أخباره

(١) الأغانى ١٣ : ١٦٥ والمقدمة والعقد الفريد وابن الأثير وغيرهم

(٢) الديميرى ١ : ٩٠ (٣) المسعودى ٢ : ١٤٦ (٤) ابن خاقان ٤٤ في

قصيدة ذكرها هناك (٥) أبو الفرج ٢١٠ (٦) الأغانى ٦ : ١٤٨

(٧) الأغانى ٦ : ١٤٦ (٨) الأغانى ٦ : ١٢٩ (٩) المستطرف ٢ : ٦٩١

(١٠) الأغانى ٦ : ١٠٧ والعقد الفريد جزء ٢ والمسعودى ٢ : ١٤٦

حدثني بها مغنية كانت له يقال لها بَرَقُ الأفق، <sup>(١)</sup> وهي اليوم عجوز تكاد تنال الأرض بوجهها من الكبر. وقد أخبرتني في بعض حديثها أن الجوهر كان في صباحها متداولاً بين الناس، فلما جمعه الوليد بن يزيد من كل وجه وغالى به غلا ثمنه منذ ذلك الحين، <sup>(٢)</sup> وهذا شيء من الإفراط في الترف لم نسمع بمثله عن أحد من الملوك المُشرفين. ومن نظر إلى ما كان عليه ملوك بني أمية من العزة والصولة وما صاروا إليه من الذلة علم أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بعده من نعمة حتى يغير العبد ما بنفسه بارتكاب المعصية.

ولما طال مَقامى بدمشق تهياً لي أن أزور أماكنها المشهورة، فزرت موضعاً يقال إن هايل وقايل نزلا فيه، <sup>(٣)</sup> وموضعاً يقال له باب الساعات <sup>(٤)</sup> يزعم أهل الأخبار أنه كانت فيه قارةٌ تقدم عليها القرابين فما يقبله الله منها تبتلعها نار من السماء وما لم يقبله يبقى في موضعه على الصخرة. وزرت مشاهد جماعة من أهل البيت المُشرفين والصحابة والتابعين والأولياء الصالحين <sup>(٥)</sup> في جبل قاسيون ومقابر الشهداء <sup>(٦)</sup> وجبّانة الباب الصغير <sup>(٧)</sup> وبينها قبور ملوك بني أمية <sup>(٨)</sup> مهتمةٌ والرخام عليها متكسر، <sup>(٩)</sup> وزرت قرية في سفح الجبل المذكور يقال لها بَرَزَة <sup>(١٠)</sup> يزعم الناس أنها مولد

(١) الأغاني ٣: ٨٧ (٢) الأغاني جزء ٦ (٣) القزويني ١٦٢

(٤) ياقوت ٢: ٥٨٨ (٥) ابن جبير والشريشي ٢: ٢٣٦ والطبقات ١: ٢٩

والمسعودي ٢: ٤٢ (٦) قضاة الشام (٧) ذكرها ابن خلكان

(٨) الخيس ٢: ١٤ (٩) المسعودي ٢: ١٤٣ وابن جبير ٢٨٣ وابن الأثير

(١٠) ابن جبير ٢٧٥ ١٣٠: ٥

الخليل إبراهيم ( عليه السلام ) <sup>(١)</sup> حُضِنَ الملائكة ، وإلى ما فوقها حجارة مصبوغة بشيء يشبه أن يكون أتردم عتيق يقولون إنها الحجارة التي رض بها قايل رأس أخيه هايل <sup>(٢)</sup> ثم جره إلى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم ، <sup>(٣)</sup> وفي حضيض الجبل مغارة أخرى تسمى مغارة الجوع يزعمون أن سبعين نبياً ماتوا فيها من الجوع . وإني لأستحي أن أتقل حديثهم كما قالوه فانهم يقولون سبعين ألف نبي <sup>(٤)</sup> كأن كل من عاش في الشام نبي أو ولي ، وفي طرف الجبل مما يلي الغرب ربوة <sup>(٥)</sup> يقول المفسرون إنها هي المذكورة في قوله تعالى « وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين » ويرد عليهم آخرون أن المراد بها بوة في الإسكندرية <sup>(٦)</sup> من ديار مصر .

وهناك مسجد يقولون إن المسيح عليه السلام أوى إلى مغارة بجانبه ، وفيه حجر قد انفلق إلى شطرين ولم ينفصل أحد الشقين عن الآخر بل اتصلا كرمان مشقوق ، <sup>(٧)</sup> ولهذا المكان منظر حسن من البساتين والحضرة في جميع جوانبه ، ولا إشراق كإشراقه حسناً وجمالاً واتساع مسرح للأبصار . وفيه تنقسم مياه المدينة إلى أنهار سبعة <sup>(٨)</sup> أكبرها نهر يزيد ونهر ثورى <sup>(٩)</sup> وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بردى وهناك بمض قري مثل نيرب ومز <sup>(١٠)</sup> والسهم وسطرى ، <sup>(١١)</sup> وفيها الجوامع والمرافق والحمامات إلا أنه لا يظهر منها إلا ما سما بناؤه لتناول الشجر عليه ،

(١) ياقوت ٢: ٥٨٩ (٢) القزويني ١٢٦ (٣) ياقوت ٢: ٥٨٨  
(٤) القزويني (٥) ابن بطوطة ١: ٢٣٣ (٦) المحاضرة ٢: ٣  
(٧) ابن جبير ٢٨١ والقزويني (٨) تقويم البلدان ٣٥٢ (٩) ذكره ابن  
خلكان ١: ٢٧٨ (١٠) ابن جبير ٢٧٩ (١١) كليات ٢٠٢

وفيهما من الفواكه والتفاح والخوخ وسائر الثمار ما ليس في البلاد مثله  
صحةً وطيباً،<sup>(١)</sup> وإلى ما يابها من طرف الجبل موضعٌ يقال له عين  
برما<sup>(٢)</sup> كان معموراً أيام معاوية بن أبي سفيان بجماعة من أهل خراسان  
ثم توالى عليه الخراب لظلم الخلفاء بعده حتى أصبح إلى هذه الغاية قليل العين  
وبقى الأثر من عمارته وذهبت العين.

ولقد كانت دِمَشقُ فيما خلا من الزمن الغابر ممزوجة بصنوف غير  
محصاةٍ من فضلات العمران ويبيها كثرةٌ الوحول في أزقتها وتراكمُ الطين  
في ساحاتها، فلما أقام فيها الأمويون شرعوا في ازالة الأقدار<sup>(٣)</sup> منها وقاية  
من الطاعون الذي كان يقع بها تباعاً في السنين السالفة،<sup>(٤)</sup> وهذا هو  
الأثر الذي تشهد لهم البلاد به كما تشهد لهم الآثار الباقية عنهم بتشيدهم  
البناء على الهندسة التي لا نجد أعظمَ منها وقعاً في القلوب ولا أتمَّ حسناً  
وجمالاً في العيون، كالذي يبلغنا عما بنّوه في الأندلس<sup>(٥)</sup> من القصور التي  
حارت في جمالها عقول الفرانجة، فقد شاهدت دار الوليد بن عبد الملك من  
قصورهم في دِمَشقُ فوجدتها بديعة الحسن مبنية بالججر والصفّاح والأعمدة  
مفروشة بالرخام الأخضر،<sup>(٦)</sup> وهي تتناهى في البهاء والأشراق إلى أن يضرب  
بها المثل<sup>(٧)</sup> في احكام رسومها وجلالة بنيانها، ولو لم يكن من تمام زينتها إلا  
الأعمدة المزخرفة منصوبة في أروقها فرداً وأزواجا لكني البصائر روعاً

(١) الكنز ١٤٤ (٢) المسعودي ٢: ٨٣ (٣) أبو الفداء ١: ٢٠٧

(٤) راجع ابن الأثير والمسعودي والعقد الفريد . وفي مروج الذهب من كلام

عن الكوفة انها ارتفعت عن البصرة وحرها وسفلت عن الشام ووبأها ٢: ١١٦

(٥) راجع المقرئ والعقد الفريد وابن الأثير (٦) الوطواط ١١١ (٧) المقدمة

ووسع الأبصار ابتهاجاً . واذكر أنه لما أدخلني صاحب القوف رحلتنا لمشاهدة ما فيها من الأشجار الغريبة <sup>(١)</sup> لم يحول نظري من القصر لما راضى من حسنه المفرط وأصيبتُ به من الرينة التي يُكبرها الناظر ويقف عندها وقفة الذاهل الذي به عقدة من السر، وهو بين أساطين دقيقة وقباب رفيعة ورواشن <sup>(٢)</sup> مخزّمة وخُرُجَات مزينة وطبقان مجمة بالحصن المنقوس وبينها من الرسوم المحيية ما تجول فيه الأفكار فحجاًه وتميل إليه الأبصار فلا تملّه .

### جامع الوليد المعروف بالجامع الأموي

هو أفضر مأثرة للملك بني أمية ، بناه الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المتقدم ذكره ، وكان ذا همة في تشييد العمارات والمساجد <sup>(٣)</sup> والقصور ، وقد شملت عنايته جميع البلدان في تسهيل الثنايا وحفر الآبار وإصلاح الطرق ، <sup>(٤)</sup> حتى كان الناس في أيامه إذا تلاقوا في الأسواق والمجالس تساءلوا عن العماره وعن أى بناء شرع فيه خليفتهم ، كدأبهم في التساؤل عن الخير والصلاة في أيام عمر بن عبد العزيز ، وعن الطعام في أيام سليمان ابن عبد الملك ، وعن اللهو في أيام الوليد بن يزيد ، وليس في بلاد الاسلام كلها مثل هذا الجامع حسناً وإتقاناً <sup>(٥)</sup> وجمالَ رسم وتعامَ زخرفة وزينة ، وهو مائل إلى الجهة الشمالية من المدينة وقد سمعت عن سفيان الثوري أنه قال الصلاة فيه ثلاثين ألف صلاة <sup>(٦)</sup>

(١) الوطواط ١١١ (٢) ذكرها الاغانى ٥ : ١٠ (٣) ابن جبير وماتوت ١ : ٥٩١ وابن الاثير ٥ : ٤ والفخرى ١٥١ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ والمقدمة ٣١٠ والقزوينى ١٢٧ (٤) ٤ : ٢١٩ و ٢٢٠ (٥) ابن جبير ٢٦٣ والشريشى ١ : ٢٠٨ وتقويم البلدان ٢٣٠ وابن بطوطة ١ : ١٩٧ (٦) ابن بطوطة ١ : ٢٠٤ ابن جبير

كان موضعه قبل الاسلام بيعةً للنصرانية تعرف بكنيسة مازيخنا،<sup>(١)</sup> ومن قبل ذلك كان يتّ عبادة لأهل جاهليتهم ، فلما دخل المسلمون المدينة عنوةً تحت قيادة خالد بن الوليد أخذوا نصف الكنيسة ، ثم دخل أبو عبيدة بن الجراح صلحاً فاتمى إلى نصفها الآخر، وقد وقع الصلح بينه وبين النصرارى ، فبقى نصفها في أيديهم وقد كانوا يزعمون أن الذى يهدم يبعثهم يُجنُّ ، فلما صارت الخلافة إلى الوليد قال أنا والله أول من يُجنُّ في سبيل الله ، ثم بدأ الهدم بيده<sup>(٢)</sup> فبادر المسلمون وأكلوا تخريبها حتى هاجت النصرارى وعلا صياحهم ، فموضهم الوليد عنها مالا جسيماً وأرضامم بكنائس عدة صالحهم عليها ،<sup>(٣)</sup> ثم وجه إلى ملك الروم<sup>(٤)</sup> فى إشخاص اثنى عشر ألفاً من العملة والصنّاع والمرّمخين ، وتقدّم إليه بالوعيد إن هو توقف ، ثم أكل هدمها سوى حيطانها، وأنشأ فيها القناطر وحلاها بالذهب وعلّق فيها الأستار من الوشى والإبريسم ، وبقى العمل فيها نحو تسع سنين ، وكان يعمل فيها ألف مرخم يُجلب اليهم الرّخام<sup>(٥)</sup> والرّممر من كنيسة أخرى لأمم النصرانية بمدينة أنطاكية تعرف بمزور<sup>(٦)</sup> .

وقد غرم الوليد فى هذا الجامع من الدنانير المضروبة زنة مائة وأربعة وأربعين قطاراً<sup>(٧)</sup> بالدمشقى ، وذلك يعادل عشرة آلاف ألف دينار،<sup>(٨)</sup> وقرأت فى بعض الكتب أن جملة المنفق عليه كان أربعمئة صندوق ، وفى كل

(١) ابن الاثير وأبو الفداء ١ : ٣١٠ وياقوت ٢ : ٥٩١ وابن جبير وابن بطوطة

١ : ١٩٨ (٢) ابن جبير ٢٦٤ (٣) الخنيس ٢ : ٣١١ (٤) المقدمة ٢١٠

(٥) تقويم البلدان ٢٣٠ (٦) للسعودى ١ : ٢٧١ (٧) الخنيس ٢ : ٣١١

(٨) ابن جبير ٢٦٣

صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار، ففي القدر الحاصل منه توافق بين الروايتين. وكان المتولى على النفقة عمر بن عبد العزيز<sup>(١)</sup> قبل أن يلي الخلافة، وقد أخذ في المسجد ستمائة سلسلة من الذهب<sup>(٢)</sup> للقناديل والنريجات، وزين جدرانه بفصوص من الذهب والفضة مزوجة بأنواع من الأصباغ المعجية تمثل أشكالاً من الرسوم لم ير أبهج منها في العيون، ورفع عمده من الرخام المجزّع طباقاً فوق طباق،<sup>(٣)</sup> وأخذ الأساطين الضخمة فيما يجاور الأرض، والسواري الدقاق فيما يملو الحنايا والقباب، وفي خلال ذلك صور المدن والأشجار بالألوان والذهب، وكتب في حائط المسجد بالذهب على اللازورد «ربنا الله لا نعبد إلا الله، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذى الحجة سنة سبع وثمانين»<sup>(٤)</sup>.

أما طول هذا الجامع (وذلك من الشرق إلى الغرب) فهو مئتا خطوة أو ثلثمائة ذراع،<sup>(٥)</sup> وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة. وأبوابه أربعة. أولها الباب الشرقي ويعرف بباب جيرون، وعليه عمودان من الحجر في غاية الإفراط في الطول والعرض، يقال إنهما من بقايا الكنعانيين،<sup>(٦)</sup> إذ ليس في وسع أهل هذا الزمان قطعهما ولا نقلهما. ثم الباب الشمالي ويعرف بباب الناطفين، وكان مدخل الكنيسة قديماً. ثم الباب الغربي ويعرف بباب البريد، ثم الباب الجنوبي ويعرف بباب

(١) المسعودي ٢: ١١٩ (٢) ياقوت ٢: ٥٩٥ (٣) ١٢٧ وياقوت

٢: ٥٩٣ (٤) القزويني وياقوت والمسعودي (٥) ابن بطوطة ١: ١٩٩

(٦) القزويني ١٢٧

الزيادة وهو يُفَضَى بالخارج منه إلى دار معاوية <sup>(١)</sup> المعروفة بالخضراء، وكان قد نزلها مروان بن الحكم بعد واقعة مرج راهط كما هو معروف. وفيه ثلاث مقصورات أشرفها المقصورة التي اتخذها معاوية (رضي الله عنه) عندما كان للمسلمين نصف الكنيسة، وتعرف بالمقصورة الصحابية، وهي أول مقصورة صنعت في الإسلام، <sup>(٢)</sup> بناها هذا الرجل العظيم وقاية لنفسه من الخوارج أن يقتلوه في أوقات الصلاة كما اغتالوا علياً عليه السلام، فكان إذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف، <sup>(٣)</sup> وإلى جانب هذه المقصورة خزانة منسأة بالنقوش فيها المصحف الكريم الذي وجهه عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام، <sup>(٤)</sup> وأخرج إلى منها صاحب الوقوف خاتماً من الفضة للوليد بن عبد الملك، قد نُقِشَ عليه « يا وليد إنك ميت ومحاسب »، وآخر لأخيه سليمان وكلماته « آمنت بالله مخلصاً »، <sup>(٥)</sup> فأخذتهما لأطراف بهما المأمون عند عودتي إلى بغداد ليضيفهما إلى ما لديه من خواتم الخلفاء، وعلى هذا الجامع قبة دورها ثمانون خطوة، عليها رصاص يمتد منها إلى أن يغطي سطوح الجامع كلها بالأواح طولها أربعة أشبار في عرض ثلاثة، وربما اعترض فيها نقص أو زيادة. وهيئة السقوف من الخارج هيئة نسر قد نُشِرَ جناحيه، وكأنما القبة رأسه، وهي في سمو الارتفاع بحيث تراها من أي موضع استقبلت دِمَشْقَ . أما صحن المسجد فانه من أجل المناظر، وعلى جدرانها آيات من القرآن الكريم، ورسوم بالذهب تدهش البصر والبصيرة وهناك

(١) أبو الفداء ١: ٢٠٤ (٢) ابن جبير ٢٧٥ وأبو الفداء ١: ١٩٩

(٣) الفخرى ١٢٩ (٤) ابن بطوطة ١: ٣٠٣ (٥) المسعودي ٢: ١١٩

مُجْتَمَعُ الدَّمَشْقِيِّينَ وَمُنْتَزَعٌ لَا يَزَالُونَ فِيهِ بِكَرَّةٍ وَعَشِيَّةٌ يَقْرَمُونَ وَيَتَحَادَثُونَ .  
 ولهذا الجامع ثلاث صوامع <sup>(١)</sup> واحدة بالجانب الشمالي وهي مُذْهَبَةٌ  
 من أسفلها إلى أعلاها ، <sup>(٢)</sup> وفيها مقاعد ومجالس ، واثنان بالجانب الغربي  
 وإحداهما أكبر الصوامع الثلاث . وقد وجدت في أروقته ودهاليزه وصحنه  
 وفي المساجد المتشعبة منه ماءٌ يجري بلا انقطاع ، وشاهدت في البلاط  
 القبلي قُبَالَةَ الركن الأيمن من المقصورة الصحائية تابوتا معترضا من  
 الأستوانة وفوقه قنديل موقدٌ أبدأ في الليل والنهار يقال إنه مشهد رأس  
 يحيى بن زكريا عليهما السلام ، <sup>(٣)</sup> ومن حوله عمُدٌ عجبية قد ظهرت فيها  
 عروق أخرى من غير ألوانها تتخيلها العين منزلةً فيها بأيدي الصناع ، إلى  
 غير ذلك من المحاسن التي حواها هذا الجامع المبارك ، وعظمت عن أن تحاط  
 بوصف ، فاني لأحسب الزائر لو تردد إليه زمانه لرأى كل يوم ما لم يكن قد  
 رآه قبلاً <sup>(٤)</sup> من جمال الرسم وإحكام الصنعة ، كما أحسب أنه لا يزوره أحد  
 الا وهو يجدد الدعاء لبانيه <sup>(٥)</sup> وإن لم يكن له ميلٌ في السياسة مع الأمويين

### المرور ببلبك وركوب البحر من بيروت

رَجَعُ إِلَى اقْتِصَاصِ الرَّحْلَةِ . رَكِبْتُ مِنْ دِمَشْقٍ فِي غَدِ الْيَوْمِ الَّذِي  
 سَافَرْتُ فِيهِ الْعُلَمَانَ إِلَى بَيْرُوتَ ، فَوَصَلْتُ فِي مَتَّصِفِ الطَّرِيقِ إِلَى بَلَدَةِ  
 غَنَاءَ ذَاتِ سُوْرٍ قَدِيمٍ يُقَالُ لَهَا بَلْبُكُ «ومنها إلى الزَّبداني وهي مدينة على  
 طَرَفِ وَادِي بَرْدَى ثَمَانِيَةَ عَشْرٍ مَيْلًا <sup>(٦)</sup>» وهي ذات أشجار وأنهار وعيون

(١) ابن بطوطة ٢٠٣ : ١ (٢) الشريشي ٢٠٨ : ١ (٣) ابن جبير

٥٧٥ (٤) القزويني ١٢٧ (٥) ابن جبير (٦) تفرج البلدان ٢٥٥

وخيرات كثيرة<sup>(١)</sup> وفيها الكرم الخصب . ولقد لقيت فيها فيلسوفاً من  
النصارى يقال له قسطا بن لوقا ، صاحبني في زيارة الآثار التي فيها وأخبرني  
عنها بأشياء كثيرة ربما أتيت على بعضها في سياق الحديث .

وقد أخذت هذه الآثار العظيمة بمجامع قلوب حيرة وإعجاباً ، وأعظمها  
هيكلان كبيران أحدهما أعتق من الآخر<sup>(٢)</sup> وفيهما من النقوش العجيبة  
المحفورة في الحجر ما لا يتأتى حفر مثله في الخشب ، مع ارتفاع جدرانها  
وضخامة حجارتهما وطول أساطينهما وعجيب بنيانهما<sup>(٣)</sup> مما يذهل العقول  
تعجباً من اقتدار الرجال على مثل هذه العظام . وقد أخبرني قسطا هذا  
الفيلسوف أنه لا يرى إلا أن هذين الهيكلين من بناء أمة ماهرة في فن  
الهندسة ، كما أنه لا يرى الحنايا التي تُقلِّها إلا أعتق من الآثار الظاهرة ،  
وفي ظنه أنها وضعت في أيام سليمان بن داود عليهما السلام ، ولما جاءت  
الروم الأولى هدموا المعبد العتيق ، ورفعوا الهياكل المائلة مكانه .

أما الحجارة الثلاثة العظيمة التي تمد من عجائب الدنيا فقد رفعها الروم  
بأيدي عبيدهم على ما جرت به عادتهم من استخدام الأسرى في البنين ،  
وليس كما تزعم العامة من أن الجن هم الذين بنوها لسليمان عليه السلام  
كدأبهم فيما يحدثون عن كل أثر<sup>(٤)</sup> من آثار الأولين فيه معجزة للآخرين .  
وانما رفعها الروم بالحيل الهندسية والقوة الآدمية ،<sup>(٥)</sup> يدلنا على ذلك ما نجد  
في أطرافها من الثقر التي تقضى بأنها كانت تُرفع جراً بالأمراس بأن يمد

(١) ابن بطوطة ١ : ١٥٨ (٢) المقرئ في ترجمة يعقوب الكندي

(٣) المسعودي ١ : ٢٩٦ (٤) المسعودي ١ : ٢٩٦ (٥) نجد في كثير من

كتب العرب نسبة المباني العتيقة الى الجن (٦) المقدمة ٣٥٨

لها في الأرض سطح من التراب يرتفع شيئاً فشيئاً مع امتداده إلى أن ينتهي إلى حيث هي مرفوعة ، ثم تُجرُّ بالسلاسل على عجلات لها بكرات من الفولاذ عريضة الأطراف حتى لا تفوص في التراب صغيرة الجرم حتى تحتمل الثقل ، وتكون أشدَّ من البكرات الكبيرة التي لا بدَّ أن تلتوى تحت هذه الحجارة الهائلة ولا تأتي بالمقصود من استعمالها لرفع الأثقال .

وقد كانت سياسة الروم مع الأمم التي يتغلبون عليها أن يأخذوا دينها بالتعظيم والتبجيل ليستميلوها إليهم ويبتئوا في أمن من تحركها للفتنة على غير اضطرار إلى حراستها بالجند ، إذ تنبئ الأخبار السالفة أنهم كانوا يملكون معظم العالم ، فلو دعاهم حفظ البلدان إلى إقامة الجند فيها للزمهم آلاف الألوف ، وهذا بعيد عن أن تقوم دولة من دول العالم بكفائه . فلما دانت لهم الشام وكان بعل<sup>(١)</sup> معبوداً فيها من الصابئة وغيرهم كما قال تعالى « أَتَدْعُونَ بَمَلَاوِتَدْرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » بنوا العبادة هذا الهيكل العظيم على شكل غريب يقصدون به الإعجاز ليظهروا ضخامة ملكهم لأهل المشرق واقتدارهم على عظام الأمور ، إذ ليس للظن بأنهم قصدوا إلى المنعة موضع في نظر العقلاء . فهذا أحد اللولبين اللذين يفضيان بالراق عليهما إلى سطح الهيكل قد أتخذ أعلاه بما هو زائد على النصف من حجر واحد فصلت منه الدرجات والسقف والحائط الدائر من جميع جهاته ، وكذلك الحجارة الثلاثة العظيمة قد أُنحِذت في أعلى الجدار لتظهر للوافد على بعلبك من حيث هو مستقبل للهيكل ، فلو أنه أريد بها المنعة لا يقتضى ذلك أن تكون في أسفل الجدار لا في أعلاه ، كما أنه لو أريد ذلك من اللولب لكان

النصف المتخذ من قطعة واحدة قائماً فيما يدانى الأرض أو يماسها ، حتى إذا وهى أعلاه بقي هو في موضعه ، أو تداعى جدار السور بقيت الحجارة الثلاثة مرداً للمهاجمة العدو

ثم إنه لما انقرضت الروم الأولى وانفرد ملك الروم الثانية بالقسطنطينية وسائر المشرق وقد أخذوا في تعظيم النصرانية رأوا أن بقاء هذا الهيكل محجة للناس تنشف أفئدتهم بما فيه من الغريب ولا يقصدون الكنائس وهي دونه في البهاء والاشراق مضرّاً بالنصرانية وحابس لها عن أن تعمّ الشام ، فعمدوا إلى تخريبه ومحو الأثر المائل منه . وكان في القسطنطينية بطرك ذو عقل ودهاء يقال له فم الذهب يحنا ، فأشار على القيصر أن يتخذ كنيسة لعبادتهم لتحصل المنفعة منه مع حفظ الأثر الجميل ، فاتخذه كذلك . وفي رواية أنه أشار عليه بأن يُعمل فيها القُوس ففعل أو يقال إنه لم يفعل . فانظر الى هذا الهيكل كيف تقلبت به أغراض الأمم فقد شاده الروم الأولى لغرضهم في الدنيا ، ثم خربته الروم الثانية لغرضهم في دينهم ، ثم مثلت آثاره لهذا الزمان ناطقةً بعمزة الله شاهدة أن لا باقى سواه .

ولما انفصلت عن بعلبك مررت بسهل أفيح يقال له البقاع وعرجت فيه على موضع يسمى بكرخ نوح<sup>(١)</sup> يزعم أهله أن فيه قبر صاحب السفينة عليه السلام . وكنت أرى بمقربة من كل قرية من قرأه ردوماً قد تراكت أمثال التلال كأنها من بقايا أمة قد خلت ، وصرفت من بعلبك الى بيروت يومين في جبل لبنان لصعوبة مسلكه ، وكنت أميل الى عيون القرى لتزيه النفس وإرواء الظما ، وإنها لكثيرة في هذا الجبل المبارك وهي تمدع في

شِعْفَاتِهِ . وأقيمت في بَيْرُوت حرسها الله ثلاثة أيام أنتظر هبوب الريح الموافقة ، رهي مدينة جلييلة ، <sup>(١)</sup> على ضَفَّة البحر ، طيبة الأقليم ، عليها سور من حجارة <sup>(٢)</sup> تحفُّ بها عمارة مشتبكة في سفح لبنان كان يستجيدها الوليد ابن يزيد المقدمُ ذكره فيقول . <sup>(٣)</sup>

ربَّ بيت كأنه متنُّ سهم سوف تأتيه من قرى بَيْرُوت

ثم يقول <sup>(٤)</sup> والنفس تاتقه إليها والقلب مشغوف بحماها

ألا يا حبذا شخصٌ حمى لُقياه يِروتُ

وهي فُرْضة دِمَشقَ ومعظم الشام ، وفي مَرَساها مجتمع كثير من سفن التجارة ، ويُجلب منها حديد <sup>(٥)</sup> لبنان الى ديار مصر ، وفي شرقها نهر يغلظ في الشتاء قد بنى له قدامُ أهلها قناة <sup>(٦)</sup> يُجرون الماء فيها إليهم ، وإلى غربها مشهد الأوزاعي (رحمه الله) ، وميلاده بيبلك <sup>(٧)</sup> وهو فخر المحدثين من أهل الشام ، وله في علم الحديث <sup>(٨)</sup> مدونات جمع فيها الصحيح المروى عن الصحابة والتابعين ومن سَمِع منهم واستخرج الأحكام الشرعية على مذهب انفراد به أهل تلك البلاد

وقد كان لبيروت شأن عظيم في غابر الأيام ، وكان عليها ملوك من الكنمانيين ومن قام بعدهم باعباء الدول الجسام . وكان للعلوم فيها سوق ليس بعدها غاية في الرواج ، حتى إنها دعيت بمدينة الحكمة . وكان للروم فيها منازلٌ وهياكل هجروها بعد الفتح وجلّوا عنها جلاء لم يرجعوا بعده .

(١) تقويم البلدان ٢٤٧ (٢) الادريسي (٣) الاغانى ٦ : ١٢٢

(٤) الاغانى ٦ : ١١٧ (٥) الادريسي وابن بطوطة ١ : ١٣٣ (٦) تقويم

البلدان ٢٤٧ (٧) أبو الفدا . ٢ : ٧ والطبقات ١ : ٥٠ (٨) ابن خلكان

إلى أن عاد إليها العمران في الاسلام بقيام الخلافة في دمشق ، إذ كانت المدن لا تصأح إلا بقيامها بالملك أو قيام الملك في جوارها حيث تتوارد الخيرات وتتقاطر الوفود ويحصل الأمن للتجارة .

وإن كنت قد شهدت لهذه المدينة بطيب الهواء فاني لا أنكر ما في ريحها الشمالية من الرطوبة التي تحدث في الرأس المألا يشعربه إلا الغريب الزائر،<sup>(١)</sup> غير أن هبوبها فيها ليس بالمتواصل حتى نعدّه من عيوب الأقاليم . بل الغالب على بيروت ريح الصبا التي تنعش النفس ، تأتيها من ناحية الرمال المنبسطة على شاطئ البحر ، وربما وجدت هذا الموضع أصلح للسكنى من البلد العتيق . وفي ظني أنه إذا توافر العمران فسيضطّر الناس أن يحدّثوا بناءهم في هذا الموضع إذ هو أقرب وجهاً إلى نسيم الصبا منه إلى ريح الشمال .

وركبت البحر من هذا الثغر المحروس في أول يوم من شعبان ، وجرى مركبنا بهواء شمالي لطيف ليس بالثقل ولا بالخفيف ، أرسله الله إلينا بكرمه ولطفه ، واستمر سيرنا في البحر نحو عشرين يوماً إلى أن أقبلنا على مالطة ، وهي جزيرة في أول بلاد الفرنجة ، وبها كنائس معظمة لأمم النصرانية ، فلبّتنا يومين في مرفئها نتسوق منها الزاد ، ثم غادرناها إلى مرسيلىة في ساحل الديار الرومية إلى غرب اللندرية<sup>(٢)</sup>

## لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة

ولما أقبلنا على مرسيية لم نر لها شيئاً من زخارف البنيان . ولا وجدنا في أهلها أثراً من محاسن العمران . لأنهم كانوا قبل دخولهم في ولاية هذا الأبرذور أهل جاهلية وخشونة ، تستعبد طائفة طاغية من أنفسهم ، تُجرى فيهم القضاء بحسب هوى النفس ، فلما استولى على ممالكهم أقام عليهم أميراً فوَّض إليه أمر الجند والقضاء وجباية الأموال ، وجعله بمنزلة الوزير في الأسلام ، وأقام تحت يده طائفة من المال يتولون المناصب في ولايته ، ولهم ألقاب معروفة عند مثل المركيس وغيره . وليس في مرسيية من البنيات المزخرفة سوى قصر مبنى على علياء تُشرف على المدينة ، يظهر أنه كان مسكناً لبعض أمراء الجاهلية ، وكنيسة عليها قبابٌ مرفوعةٌ نصبها هذا الأبرذور الذي نصرَ أمته ونصرَ القيسيين والرهبان كما هو معروف ، وقد نظر بين العناية اليهم وأحسن بالنعم الطائلة عليهم ، واتخذ منهم أولياء يستشيرهم في أموره ويرجع في السياسة إلى رأيهم ، اذ كان القوم من دونهم همجاً لا يعرفون القراءة ولا أميطت عن بصائرهم غشاوة الجهل ، ومعظمهم عبيد للتمويل من التجار ، يموتون جوعاً بين يديه وهم يبللون أرضه بعرق نهبهم وشقائهم ثم لا يحصلون على كسرة تُمسك رَمَقَهُمْ ، ، فأين هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعاش بين أيديهم واحتذائهم أشرف السنن العادلة؟ فكان الله تعالى قد خص هذه الأمة من الفضل والنعم<sup>(١)</sup>



بينه وبين الباب (١) الذي هو خليفة الأمم النصرانية، وأنه يمكث عنده أربعين أو خمسين يوماً، فاستطلت هذه الغيبة منه، وخفت فوات الحج إن بقيت منتظراً رجوعه، فرأيت أن أوافيه برومة، فركب معي من لندن الأمير رسول إلى القيصر وجزنا عباب هذا البحر الذي لم تجزّه بمد سفن المسلمين إلى أن من الله تعالى علينا بالوصول إلى رومة بأعين طائر وأطف ريح والحمد لله على جميل ما يوالينا من النعمة ويتداركنا به من اللطف .

ولما أقبلنا على رومة أبلغ الرسول الأنبرذورَ خبرَ قدومي من لندن الرشيد فسير إلى أمراء دولته وأهل حاشيته وبطانته، فساروا بي إلى حيث هو مقيم في دار الباب، وهو قصر بل قصور قد جمعت بين الضخامة والاحكام، وعُني البابون من خلفاء بطرس كبير الحواريين بتجميلها وتزيينها حتى صيروها نزهة جمعت الجمال والحسن . وكنت حين جاوزني الأمراء مقصوراتهم إلى مجلس الأنبرذور قد رأيت على جدرانها صور ملوك وأئمة وعباد قد طحنهم رحي المنون، فلما دخلت عليه وجدته جالساً على منصة من فوقها قبة عليها كتابة بالرومية، وهي مجللة بالذهب، وعلى رأسه تاج مرصع باللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وفي يده قضيب الملك، وعليه حلة من الوشي كأعظم ما يكون من حلل الملوك، وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهورة والحراب والأعمدة، وبينهم جماعة من العلوج وأشرف العساكر وطائفة من الجنائقة والرهبان المقدمين قد لبسوا الوشي الذي يقيمون به الصلاة في أعيادهم ومواسمهم، ولكن لم نرمثله على من يجاورنا

(١) كنية البابا بالباب المذكورة في تقويم البلدان ولفظها بتفخيم الباتين

منهم في المشرق حسناً يُعشى الأبصارَ بريقه ولعانه .

فلما مثلت بين يديه قمت بما وجب عليّ من الاجلال له وبلغته سلام  
الرشيد على لسان المترجم ، فكلمني بترفع الملوك الذين توقع جلالتهم مهابة  
في قلوب الوافدين عليهم ، ولكن من غير أن يكون في نفسه جبروت ،  
وشكر للرشيد مودته وأثنى عليه ثناء جميلاً ، وكان الأمراء والرهبان يمدّون  
اليّ أعناقهم ويحدّقون فيّ بأبصارهم كأنهم لم يروا من قبلي مشرقياً على دين  
الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم أشرت إلى الترجمان أن يذكر له هدية الرشيد  
وانه يُطرف بها جلالاته لارتباط المودة بينهما ، فشكرني على ذلك مرة  
ثانية ، ثم استدنانى منه وأمرني بالجلوس ، وأخذ يسألني عن رحلتى إليه  
عظفاً مال اليه بمد الترفع الذي استقبلني به ، فكنت أجيبه بما تقتضيه  
الرسوم من حمد الله على ما آتاه من الملك العظيم والثناء عليه لما أوجد  
لرعيته من أسباب الخير والراحة . ثم سألتني عن الدولة في المشرق وأنه يروم  
أن يكون الدهر للرشيد في صفاء ، فأجبتُه بما في الإشارة إليه تحفظ عن  
ذكر بني أمية ، والملاّ من الأعيان والرهبان حاضرون ، ثم سألتُه أن يأذن لي  
بالدخول عليه في خلوة وانفراد فأجابني إلى ذلك وهو يظهر ائتناسه بي  
وتوسمه الخير مما وقع بينه وبين الرشيد من التوادّ .

ولما انصرفت من حضرته وقف لصحبتى أميراً من عظماء دواته ملك  
قلبي بركة نفسه ، وأحسن مُنقَلَبِي بلطيف أنسه ، وأحلّ كرامتي عنده  
بالمحل الأرفع ، لم يترك أثراً مشهوراً في رومة من قصر مُنيف ولا منزل  
مزخرف ولا موضع ذى حسن وبهاء إلا ساربت اليه وأرانيه ليعظّم في  
عيني أمر الفرّنجة ، فما كنت لأكبر من مبانيهم إلا الكنائس التي

يعظمونها ويتأنقون في تمنيئها بالرسوم التي تنهاى في الحسن وجمال الزينة، وهذا الرسم أثر لهم من الصناعة ينفردون به دون المشاركة<sup>(١)</sup> الذين ينهائم الدين عنه،<sup>(٢)</sup> وإنما يكونون في حاجة إلى صناعتهم إذا بنوا مسجداً أو قصرًا مزخرفًا كما علمت، إلا أنه لا يصح انفرادهم بالحِذق فيه دونهم لبطلان الموازنة فيما يتركه فريقٌ ويأخذ فيه الآخرون. وفي نفسى أن المسلمين لو لانهى الشرع عن التصوير ما بعد أن يفوقوا فيه الروم، فقد رأيت من عمل الرسامين في المشرق الأقصى ما يقرب أن يكون في جودة عمل الروم. ورأيت صوراً من بلاد الصين وصلت إلى البرامكة وهي تمثل رجالاً ونساءً وأولاداً بحيث إن الناظر إليها يميز بين الضاحك والباكى، حتى لقد يميز بين ضحك السرور وضحك الشماتة،<sup>(٣)</sup> وهذه غاية في المهارة لم يبلفها إلا كبراء أرباب العقول من صناع الروم. وأعظم ما شاهدت من كنائس رومة بيعة بطرس حواري المسيح عيسى عليه السلام، وهي من عجائب الدنيا،<sup>(٤)</sup> وفيها من الرسوم والنقوش والأصباغ والأعمدة والذهب<sup>(٥)</sup> ما أذكرني جامع دمشق في بهائه وجماله، وهي أبدع ما شاهدته من مباني الروم، وامتدادها مع مقصوراتها نحو ستمائة ذراع<sup>(٦)</sup> فيما سمعت، وامتداد

---

(١) لم يكن للمشاركة في زخرفة مبانيهم الا أن يتخذوا أشكال الخطوط دون الصور وقد ابتدعوا من رسومها أشكالاً تقيد الابصار في الحسن والبهجة مع أنه ليس أصعب على الرسام من ابتداع شكل لا يتوسع فيه بغير الخطوط المتماثلة وبذلك يعلم مقدار فضلهم في الصناعة بما وضعوه من هذه الخطوط وما علقوا عليها من الكتابة التي اتخذوا فيها طريقة التزيق لتملاء العين بهجة وارتياحاً. (٢) المقدمة ٢٢٨

(٣) القرمانى ٥ : ٢٢٤ (٤) المقرزى والمحاضرة ١ : ٣١ والقرمانى ٦ : ٥٥

(٥) القرزوبى (٦) تقويم البلدان ٩٩

الكنيسة يبلغ نصف ذلك،<sup>(١)</sup> وهي مسقوفة بالرصاص مفروشة بأفخر أنواع الرخام. وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض عظيم للعمودية يجري فيه الماء دائماً من نهريشق هذه المدينة<sup>(٢)</sup> كما تشق دجلة مدينة الزّوراء. وفي صدرها كرسيٌّ مذهب يجلس فيه الباب في أيام المواسم والأعياد. وتحت باب مصفّح بالفضة<sup>(٣)</sup> يوصل إلى سرداب فيه مشهد بطرس فيما يزعم أهل هذه البلاد، ولكنني علمت أن أهل المشرق من أمم النصرانية يردون ذلك عليهم، ويذهبون إلى أن بطرس إنما قبض في أنطاكية لا في رومة، وأن كرسي أنطاكية عندهم هو المقدم على كرسي رومة، وفي هذه الأقوال نظر لا محل لذكره في هذا الكتاب. وخارج الكنيسة عمودٌ من رخام قائمٌ على قواعد أربع من النحاس، وفي أعلاه عمود من الصّفّر قد رفعت على رأسه كرة مذهبة يراها كل من في رومة كأنها علم لموضع الكنيسة.

ولما كان الغد أذن القيصر لي بالدخول عليه فلقينته في ثياب من الديباج وغليه تاج من الجواهر أعظم مما كان عليه بالأمس كأنه أراد أن يُظهر لي عظم سلطانه<sup>(٤)</sup> بما تحوى خزائنه من الجواهر والمال. ولما أمرني بالجلوس بلّغته ما أوصاني الرشيد بتبليغه من أمر أمية بالأندلس وما يروم من موافقته عليهم، ولكن بايجاز أهدت فيه التأكيد ليكون له إشارة إلى المصلحة

---

(١) ابن خرداذبة ٩٣ (٢) تقويم البلدان ٢١١ (٣) كذا وجدت وصف هذه الكنيسة في أسفار العرب من أهل الأسفار وغيرهم وذلك قبل الحروب الصليبية (٤) ذكر صاحب الأغاني ٢ : ٢١ أن كسرى لما أنفذ رسوله إلى قيصر الروم حمله على البريد ليريه سعة أرضه وعظم مملكته فذكرت عن هذا القيصر مثل ذلك

ليس غير، فحاطبني بما يقرب معناه من كلام وزيرنا جعفر (أعزه الله)، فأكبرت ذلك من غير أن أعجب منه، إذ كنت أعلم أن عقول الحكماء قد تتوارد على الشيء الواحد ولو على اختلاف الآماد. وتتلاقى ولو على بعد البلاد. ولما ذكرت له قرابة العباسيين من النبي صلى الله عليه وسلم فكفر في نفسه حتى ظننت أنه سيقول لي إن من الناس من هم أقرب منهم ومن بنى أمية إليه. ثم انبسط له مجال الحديث فقال إني لأرى الاسلام اليوم أقل اجتماع عصبية منه في أيام الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) لتجزئته بين المشرق والمغرب. على أنى أرى دولة صاحبك أعظم هذه الدول وأوسعها رقعة مملكة. وأما أمر الأمويين فانه وعمر المرام لا يناله الأعلى تهادى الأيام. إذ لا يدل الشقاق بين السلطان وعميه على ضعفهم عن رد العدو، فلو شد صاحبك عليهم لحوطوه بأطرافهم وقتلوه بغرض واحد تدعوهم إليه الحالة التي يقعون فيها جميعاً من الفرار والاشراف على الخطر، ولقد كنت أرى تغلبه قسراً على الأندلس من قبل أن يوافيها الأمويون، وقد كانت قضاتها على أغراض متضاربة أفضت بعد الحروب فيما بينهم إلى تغلب الجيرة عليهم، أما اليوم وقد وافوها بالأموال<sup>(١)</sup> فليس من السداد أن يبادتهم بالقتال على حين يأتون من إفريقية بالمرتزة من الرجال « وهم الذين يُكرون أنفسهم للحروب »،<sup>(٢)</sup> وربما تعذر عليه مداهمهم من المغرب لما هو ناشب من الفرقة بينه وبين العلويين فيكون له عدوان من الأمويين وأهل البيت جميعاً، وقد قيل في الأمثال « إن الزئبر إذا جمع منه جبل يوثق به الفيل المقتلم » ثم إنه ذكر لي عند ما استهضته الى مظاهرة الرشيد أن بينه وبين الأندلس ملوكا يجب أن

يبقى معهم على عهد المسألة والمواذعة ، وأنه يوجه همة إلى مناصبة الملوك الذين هم في ناحية المشرق كأنه يريد أن يستولى على القسطنطينية . هذا ما وقع بيني وبينه من الحديث ، وقد قال لي في خاتمة المفاوضة قل لأمير المؤمنين إني عنيتُ بمحاجته وسأكون ظهيراً له فيما يروم واقراً عليه السلام .

ذلك ما كان من أسرار الرسالة لم تتوسع المصلحة منها إلى ما وراء التوادُّ الظاهر من السياسة كما رأيت ، ولبثت في رومة ثلاثة أيام متواليات . وكان الانبردور قد اتخذ لي وليمة دعا إليها عظماء دولته ، وتكرم على بحاتم من الياقوت في سبيل التعطف ، ثم طلب إليّ أن آخذ الطريق إلى تونس لأوجه إليه منها برمة عظيم من عطاء النصرانية ، يقولون إنه من أهل الجنة ،<sup>(١)</sup> فأجبتُه بالأمثال إلى ذلك ، فسير في صحبتي مركباً من أسطوله ليحملها إليه وغادر مركبنا ساحل رومة في يوم شديد الحر من شهر رمضان كأن الحرارة فيه تشمل الأقاليم المرتفعة أيضاً وقد حَقَّ تسميته بـرمضان الرَّمْض وهو شدة الحر<sup>(٢)</sup>

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وأنا على متن السفينة وبينى وبين تونس مسيرة يوم وليلة . والله أسأل أن يبلغنا المقصد بالسلامة وهو الكفيل بالتيسير والتسهيل لأرب سواه .

(١) هو قبر يانوس فما يقولون شهيد من شهداء النصرانية (٢) الكنز ١٤٦